تَارِيخُ دِمَشْقَ لِابْنِ عَسَاكِرَ

عِنْدَمَا يَكْتُبُ شَيْخُ الـمُؤَرِّخِينَ وَمُؤَرِّخُ الـحُفَّاظِ وَالـمُجَدِّدِينَ

يُـجَسِّدُ كِتَابُ «تَارِيخُ مَدِينَةِ دِمَشْـقَ» للحافظ ابن عَسـاكِرَ، مَدَى حُبِّهِ وَوَلَعِه بِهَذِه الـمَدِينَةِ الـجَمِيلَةِ التِي نَشَأَ وَتَرَبَّى بِهَا، مُتَّبِعًا فِي ذَلِكَ مَنْهَجًا بَدِيعًا؛ فَبَدَأَ الكِتَابَ بِمُقَدِّمَةٍ حَافِلَةٍ، تَـحَدَّثَ فِيهَا عَنْ نَهْجِه فِيه، سَالِكًا مَنْهَجَ الـمُحَدِّثِينَ، خَاصَّةً أَنَّهُ مِنْ أَشْهَرِ عُلَمَاءِ الـحَدِيثِ فِي عَصْرِه، فَيَبْدَأُ بِذِكْرِ السَّنَدِ ثُمَّ يُورِدُ الـخَبَرَ.

وَقَـدْ ذَكَـرَ الحَافِظُ ابـنُ عَسَـاكِرَ فِي تَارِيـخِه، تَرَاجِمَ مَـنْ دَخَلَ مَدِينَةَ دِمَشْـقَ وَنَـزَلَ بِهَـا مِـنَ الصَّحَابَـةِ وَالتَّابِعِـينَ، وَالعُلَـمَاءِ وَالأُمَـرَاءِ، وَالأَفَاضِـلِ وَغَيْرِهِـمْ، فَبَـدَأَ فِي الـمُجَلَّدَيْنِ الأَوَّلِ وَالثَّـانِي بِمَا وَرَدَ فِي فَضَائِلِ دِمَشْـقَ وَالشَّـامِ، ثُـمَّ ذَكَرَ فِي الـمُجَلَّدَيْنِ الثَّالِثِ وَالرَّابِعِ السِّـيرَةَ النَّبَوِيَّةَ، ثُمَّ بَدَأَ فِي أَعْلَامِ الرِّجَالِ مِنَ الـمُجَلَّدِ (5) حَتَّى (65)، ثُمَّ الكُنَى مِنَ الـمُجَلَّدِ (66) حَتَّى الـمُجَلَّدِ (68)، ثُمَّ النِّسَاءِ مِنَ الـمُجَلَّدِ (69) حَتَّى الـمُجَلَّدِ (70).

وَقَدْ رَتَّبَ ابْنُ عَسَاكِرَ أَسْمَاءَ الـمُتَرْجَمِ لَـهُمْ عَلَى حُرُوفِ الـمُعْجَمِ، مُقَدِّمًا تَرَاجِمَ مَنِ اسْمُهُ «أَحْمَد» عَلَى غَيْرِه، مَعَ مُرَاعَاةِ الـحُرُوفِ فِي أَسْمَاءِ آبَائِهِمْ وَأَجْدَادِهِمْ، وَأَرْدَفَ ذَلِكَ بِمَنْ عُرِفَ بِكُنْيَتِه وَلَمْ يُوقَفْ عَلَى حَقِيقَةِ اسْمِه ثُمَّ بِمَنْ ذُكِرَ بِنِسْبَتِه، وَبِمَنْ لَمْ يُسَمَّ فِي رِوَايَتِه، وَأَتْبَعَهُمْ بِذِكْرِ النِّسْوَةِ وَالإِمَاءِ، كَمَا قَامَ ابنُ عَسَاكِرَ بِتَقْدِيمِ الـمَادَّةِ الأَوَّلِيَّةِ لِلتَّرْجَمَةِ مُسْنَدَةً فِي كُلِّ جُزْئِيَّةٍ مِنْ جُزْئِيَّاتِهَا حَتَّى فِي الاسْمِ أَوِ الكُنْيَةِ أَوْ يَوْمِ الوَفَاةِ، وَتَتَعَدَّدُ صُوَرُ الـخَبَرِ بِتَعَدُّدِ الأَسَانِيدِ التِي انْتَهَتْ إِلَيْهِ وَالرِّوَايَاتِ التِي جَاءَ عَلَيْهَا، وَقَدْ تَتَكَاثَرُ الأَسَانِيدُ عَلَى خَبَرٍ وَاحِدٍ فِي صُورَةٍ وَاحِدَةٍ أَوْ صُوَرٍ مُتَقَارِبَةٍ.

وَتَكْمُنُ أَهَمِيَّةُ هَذَا التَّارِيخِ فِي أَنَّهُ لَا يُعَدُّ تَارِيـخًا لِـمَدِينَةِ دِمَشْقَ - إِحْدَى أَكْبَرِ مَعَاقِلِ الـحَضَارَةِ الإِنْسَانِيَّةِ وَالعُلُومِ الإِسْلَامِيَّةِ عَبْرَ مُـخْتَلِفِ العُصُورِ - فَحَسْبُ، بَلْ إِنَّهُ مَوْسُوعَةٌ حَدِيثِيَّةٌ، وَهُوَ مِنْ أَوْسَعِ الـمَصَادِرِ فِي سِيَرِ الرِّجَالِ، فَمِنْهُ يُمْكِنُ اسْتِخْلَاصُ كُتُبٍ وَأَسْفَارٍ عِدَّةٍ فِي مَوْضُوعَاتٍ وَعُلُومٍ وَفُنُونٍ شَتَّى، فَالكِتَابُ مَرْجِعٌ لِلعُلَمَاءِ لِاحْتِوَائِهِ عَلَى الآلَافِ مِنَ الأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ وَالآثَارِ. وَالكِتَابُ مَوْسُوعَةٌ فِي عِلْمِ الرِّجَالِ وَالـجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ؛ فَعِنْدَمَا يُتَرْجِمُ لِلرِّجَالِ وَيَذْكُرُ سِيَرَهُمْ وَيَذْكُرُ مَرْوِيَّاتِهِمْ، فَإِنَّهُ يُبَيِّنُ حَالَـهُمْ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ ضَعْفٍ أَوْ تَوْثِيقٍ، وَيُصَحِّحُ أَسْمَاءَهُمْ إِذَا اقْتَضَى الـحَالُ،

وَيَذْكُرُ سَنَةَ الوَفَاةِ لِلرِّجَالِ، وَهُوَ بِهَذَا يُـحَدِّدُ طَبَقَةَ الاسْمِ الـمُتَرْجَمِ لَهُ، وَفِي هَذَا مِنَ الفَائِدَةِ مَا يُدْرِكُهُ العَامِلُونَ فِي عِلْمِ الرِّجَالِ.

وَهُوَ عِنْدَمَا يَسْرُدُ الـخَبَرَ - خُصُوصًا فِي الفَضَائِلِ - يَسْرُدُ جَمِيعَ الرِّوَايَاتِ بِأَسَانِيدِهَا الـمُتَعَلِّقَةِ بِالـخَبَرِ، يَذْكُرُ ذَلِكَ وَهُوَ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ بِالأَحَادِيثِ الضَّعِيفَةِ وَالـمَوْضُوعَةِ، فَكَأَنَّهُ بِإِيرَادِه السَّنَدَ يُـخْلِي مَسْؤُولِيَّتَهُ وَيَدَعُ العُهْدَةَ فِي نَقْلِ الأَخْبَارِ عَلَى مَنْ نَقَلَهَا، وَكَأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَقُولَ أَيْضًا إِنَّ كِتَابَهُ لِـجَمِيعِ طَبَقَاتِ النَّاسِ، وَإِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ تَارِيـخُهُ مِرْآةً تَعْكِسُ حَيَاةَ النَّاسِ وَمُعْتَقَدَاتِهِمْ وَمَذَاهِبَهُمْ وَنِحَلَهُمْ وَآرَائَهُم السِّيَاسِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ، فَلَهُ النَّقْلُ وَالعَرْضُ وَالسَّرْدُ وَلِلعَقْلِ التَّدْقِيقُ وَالتَّمْحِيصُ. وَالكِتَابُ مَوْسُوعَةٌ فِي الأَدَبِ شِعْرًا وَنَثْرًا، فَضْلًا عَنْ كَوْنِ الـحَافِظِ ابْنِ عَسَاكِرَ نَفْسِه شَاعِرًا أَدِيبًا.

وَعِنْدَمَا يُؤَرِّخُ ابْنُ عَسَاكِرَ لِـمَدِينَةِ دِمَشْقَ خَصِّيصًا لَا يَقْتَصِرُ عَلَى الـجَانِبِ التَّارِيـخِيِّ، بَلْ يَتَعَدَّاهُ إِلَى جُغْرَافِيَّةِ الـمَدِينَةِ لِأَنَّهُ أَدْرَكَ بِحِسِّ العَالِـمِ وَحِسِّ الـمُؤَرِّخِ أَنَّهُ لَا انْفِصَامَ بَيْنَ التَّارِيخِ وَالـجُغْرَافِيَا، فَالـجُغْرَافِيَا هِيَ الـمَسْرَحُ الذِي تَـحْدُثُ عَلَيْهِ وَقَائِعُ التَّارِيخِ، وَهِيَ مِنْ أَهَمِّ الـمُؤَثِّرَاتِ التِي تُؤَثِّرُ فِي الإِنْسَانِ، وَمِنْ ثَمَّ فِي الـحَيَاةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ، كَمَا أَنَّ الـمَوْقِعَ الـجُغْرَافِيَّ لِلمَدِينَةِ الذِي حَبَاهَا اللهُ كَانَ لَهُ أَثَرٌ فِي دَوْرِهَا الـحَضَارِيِّ عَبْرَ مُـخْتَلِفِ العُصُورِ.

وَكَأَنَّ الـحَافِظَ ابنَ عَسَاكِرَ أَرَادَ أَنْ يُؤَرِّخَ لِلعَالَـمِ العَرَبِيِّ وَالإِسْلَامِيِّ عَلَى امْتِدَادِ رُقْعَتِه الـجُغْرَافِيَّةِ شَرْقًا وَغَرْبًا مِنْ خِلَالِ تِلْكَ الـمِشْكَاةِ الـمُشِعَّةِ «دِمَشْقَ الشَّام»، فَكَانَ بِتَارِيـخِه الكَبِيرِ الـمَوْسُوعِيِّ الفَذِّ شَيْخَ الـمُؤَرِّخِينَ وَمُؤَرِّخَ الـحُفَّاظِ وَالـمُحَدِّثِينَ. وَبِالنَّظَرِ إِلَى عَصْرِ الـحَافِظِ ابْنِ عَسَاكِرَ، وَهُوَ عَصْرُ الـجِهَادِ وَعَصْرُ النَّهْضَةِ العِلْمِيَّةِ وَمِنْ خِلَالِ مَوْسُوعَتِه «تَارِيخُ دِمَشْقَ» نُدْرِكُ كَيْفَ اسْتَطَاعَتْ هَذِه الأُمَّةُ تَـخَطِّي مِـحْنَتَهَا بِالصُّمُودِ وَبِالقُوَّةِ الـحَيَوِيَّةِ الكَامِنَةِ فِيهَا وَطَرْدِ الصَّلِيبِيِّينَ وَتَـحْرِيرِ القُدْسِ.

وَيَمْتَازُ «تَارِيخُ مَدِينَةِ دِمَشْقَ وَذِكْرُ فَضْلِهَا وَتَسْمِيَةُ مَنْ حَلَّهَا مِنَ الأَمَاثِلِ أَوِ اجْتَازَ بِنَوَاحِيهَا مِنْ وَارِدِيهَا وَأَهْلِهَا» وَهَذَا اسْمُهُ الكَامِلُ - عَنِ التَّوَارِيخِ التِي سَبَقَتْهُ أَنَّهُ أَوْسَعُهَا مَادَّةً وَأَشْمَلُهَا تَوَجُّهًا، وَقَدْ يَكُونُ هَذَا الكِتَابُ أَوْسَعَ تَوَارِيخِ الـمُدُنِ، وَهُوَ أَيْضًا مِنْ أَوْسَعِ الـمَصَادِرِ فِي تَرَاجِمِ الرِّجَالِ، حَتَّى لَيُجَرَّدَ مِنْهُ كُتُبٌ فِي مَوْضُوعَاتٍ مُـخْتَلِفَةٍ، كَوُلَاةِ دِمَشْقَ مَثَلًا وَقُضَاتِهَا وَشُعَرَائِهَا، وَمِنْهُ يُسْتَخْرَجُ أَحْسَنُ تَارِيخٍ لِبَنِي أُمَيَّةَ سَكَتَتْ مُعْظَمُ التَّوَارِيخِ عَنْهُ، وَهُوَ إِلَى ذَلِكَ حَوَى عِدَّةَ كُتُبٍ مُسْتَقِلَّةٍ، فَكُلُّ طَالِبٍ يَظْفَرُ فِيه بِطِلْبَتِه وَيَـجِدُ فِيه مَا لَا يَـجِدُهُ فِي كِتَابٍ غَيْرِه لِأَنَّ ابْنَ عَسَاكِرَ يَمْتَازُ بِالتَّحَرِّي وَالبَسْطِ وَالاسْتِقْصَاءِ وَتَتَبُّعِ النَّوَادِرِ فِي سِيَرِ الـمُتَرْجَمِ لَـهُمْ وَأَخْبَارِهِمْ.